كيمياء القبول الاجتماعي: عندما تشرح "قاعدة ليبينسكي" سر نجاح العلاقات الإنسانية

لهذا المقال حكاية، بدأت حين عدتُ الأسبوع الماضي إلى كتابٍ في تطوير المركبات الدوائية، أراجع من خلاله المفاهيم الصيدلانية الأساسية تمهيداً لكتابة ملخص حول المناهج الحديثة في تطوير الدواء. وبينما أتصفح الفصل المخصص للخصائص الفيزيوكيميائية للدواء المثالي، استوقفني مفهوم "قاعدة ليبينسكي للخمسة" (Five of Rule s'Lipinski). لم تبدُ لي مجرد شروط لتقييم النفاذية والامتصاص، بل بدت كأنها نموذج مصغّر لما يحكم "التوافر الحيوي" للأفكار والشخصيات في النسيج الاجتماعي.

ولعلّ تكويني الصيدلاني هو ما جعل مفاهيم مثل "النفاذية" و"التمازج" و"التوافر الحيوي" تتحول إلى عدسات أرى بها العالم. فكما تُعلّمنا الصيدلة كيف يعبر الدواء إلى الجسد، يظل السؤال مفتوحاً: من يعلّمنا كيف تعبر الأفكار إلى العقول، والأشخاص إلى القلوب؟ هنا انقدحت الشرارة: ربما تخفي قاعدة ليبينسكي – إلى جانب معادلاتها – وصفةً للقبول الإنساني، لا للامتصاص الدوائي فقط.

وليس هذا الربط بين الكيمياء والعلاقات وليد المصادفة؛ فاللغة الدارجة سبقت العلم حين قالت بالإنجليزية: There is chemistry between them. وتراثنا الروحي بدوره جعل الكيمياء رمزاً للتحول النفسي كما في عنوان كتاب الغزالي "كيمياء السعادة". فالكيمياء – ابنة الخيمياء – ورثت فكرة التحويل: تحويل الرصاص ذهباً، وتحويل الأخلاق نفوراً إلى انسجام. ومع تطور العلم، استبدل الإنسان بالطلاسم معادلات وبالحدس قياساً، لكنه لم يتخلَّ عن جوهر السؤال: ما الذي يجعل شيئاً ما قابلاً للامتزاج؟ سؤال واحد، تغيّرت أدوات الإجابة عنه، وظل الإنسان موضوعه الأول.

وفي هذا السياق، يمكن النظر إلى الصيدلي بوصفه الامتداد الحديث للكيميائي القديم؛ ذاك الذي كان يبحث عن سرّ التحوّل في المعادن، بينما يبحث الصيدلي اليوم عن سرّ التحوّل في الإنسان نفسه: كيف يعبر الدواء إلى الجسد. ومع تطور العلم، تغيّرت الأدوات، لكن جوهر السؤال بقي كما هو: ما الذي يسمح لشيء ما أن يعبر؟

تنص قاعدة ليبينسكي على خصائص بنيوية تجعل الجزيء أكثر قدرة على عبور الأغشية الحيوية: وزن جزيئي منخفض، عدد محدود من مانحات ومستقبلات روابط الهيدروجين، ومعامل ذوبان يوازن بين البيئة المائية والدهنية. وإذا نقلنا هذه "المرشحات" إلى عالم العلاقات – بوصفها تشبيهاً تفسيرياً لا قانوناً

اجتماعياً صارماً – سنجد هندسة لافتة للقبول الإنساني عبر ثلاثة محاور:

1. الوزن الجزيئي: خفة الحضور وبساطة الطرح

الكيمياء، الجزيئات الضخمة تعجز عن عبور غشاء الخلية. وفي الحياة الاجتماعية، يمثل "الوزن الجزيئي المرتفع" الشخصيات المثقلة بالتكلف الفكري أو الخطاب المعقّد الذي لا يراعي سياق المجلس ولا حاجة المستمع. الشخص الذي يصرّ على استعراض عضلاته المعرفية في حديث عابر يشبه جزيئاً ضخماً يستعصي على العبور.

أما الرشاقة في الحضور، والبساطة في الطرح، وحسن اختيار التوقيت، فهي ما يمنح الفكرة نفاذية سلسة إلى العقول والقلوب.

2. روابط الهيدروجين: التوازن بين العطاء والإنصات

في الكيمياء، ثمة جزيئات "تمنح" الهيدروجين وأخرى "تستقبله". وفي العلاقات، يمكن أن نرى في الأولى صورة العطاء والاندفاع، وفي الثانية صورة الاستقبال والإنصات.

الإفراط في التنازلات والانكشاف العاطفي منذ اللقاءات الأولى قد يُربك الطرف الآخر ويولّد شعوراً بالثقل، حتى لو كانت النوايا طيبة. وفي المقابل، فإن الاستقبال المفرط لطاقات الآخرين وسلبياتهم يرهق البناء النفسي للفرد ويجعله هشاً.

العلاقات الصحية تتطلب مرشحات واعية: عطاءً محسوباً، وإنصاتاً منتقى، وتوازناً يحمي الطرفين من الغرق أو الاستنزاف.

3. معامل الذوبان: مرونة المرور وحفظ الجوهر

يقيس معامل (LogP) قدرة المركب على الذوبان في الوسطين المائي والدهني. وفي العلاقات، يمكن أن نرى في هذا الميزان صورة الذكاء الاجتماعي:

- الشخص "المائي": يفتقر إلى هوية واضحة، فيذوب في آراء الآخرين ومواقفهم حتى يفقد تميّزه

واحترامه لذاته.

• الشخص "الدهني": ينغلق داخل قوقعته الفكرية أو الفئوية، يرفض الاختلاف ويقاوم أي محاولة للامتزاج مع الواقع أو الناس.

النجاح الاجتماعي يحتاج إلى "ذوبان ذكي": مرونة تستوعب التنوع، وصلابة داخلية تحمي جوهر المبادئ دون تصلّب أو ذوبان كامل.

ما بعد البناء الجزيئي: حدود القواعد أمام واقع البيئة

حتى الجزيئات المصممة بعناية قد تصطدم بحواجز لا تسمح بمرورها، أو بآليات في الجسم تعمل على طردها قبل أن تُحدث أثرها. وفي العلاقات الإنسانية، نجد ما يشبه هذه المقاومة البيولوجية: بيئات اجتماعية مغلقة، أو تجارب سابقة مؤلمة، أو انحيازات راسخة تجعل قبول "الآخر" أمراً صعباً مهما كانت صفاته طيبة.

وكما لا يُعدّ الدواء فاشلاً إذا لم تتوفر له البيئة المناسبة، لا يُعدّ المرء فاشلاً إن تعثر حضوره في محيط لا يملك الاستعداد لاستقباله. الحكمة لا تقف عند تهذيب الذات، بل تمتد إلى اختيار البيئة التي تسمح بالاندماج والاستقرار.

خاتمة

التأمل في قاعدة ليبينسكي يلمّح إلى أن قبول الأفكار والشخصيات في المجتمع ليس أمراً عشوائياً، بل يخضع لعناصر يمكن فهمها ومراجعتها. وربما يكون من المفيد لكل واحد منا أن يتأمل "كيمياء حضوره": هل هو خفيف بما يكفي، معتدل في عطائه، مرن في تفاعله، دون أن يفقد جوهره؟

فقد يحتاج المرء أحياناً إلى تعديل "جرعة" حضوره، وقد يحتاج في أحيان أخرى إلى إعادة تركيب الدواء كله؛ أي إعادة بناء طريقته في التفاعل مع العالم.